فن الرثاء
عند ابن زيدون ت: ٤٦٣هـ
دراسة موضوعية وفنية

إعداد
أ.د/ حسن عطية أحمد طاحون
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية
١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

فن الرثاء
عند ابن زيدون ت: ٤٦٣هـ
دراسة موضوعية وفنية

إعداد
أ.د/ حسن عطية أحمد طاحون
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

المقدمة

لله الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم ... وبعد ...

فإن التراث العربى لا يزال مليئا بالقيم الفنية والتعبيرية التى تفرض علينا أن نميط عنها اللثام؛ ليتم تفعيلها فى الحياة الثقافية والاجتماعية التى تختص بالشعوب، فيقوم الحاضر على إيجابيات الماضى، وينظر إلى المستقبل بآمال مرجوة الوقوع، ولعل ذلك يتمخض عن استمرارية العطاء الشعرى البنَّاء الذى يُعنى بالنفس الإنسانية أينما وجدت.

وهذه صفحات وجيزة عن "فن الرثاء" عند (ابن زيدون) أحاول فيها الحديث عن بعض القيم الموضوعية التى تؤدى دورها فى المجتمع ، وأبين كيفية تعبير الشاعر عن هذه المضامين من الناحية الفنية .

وهناك عدة أسباب دفعتنى للكتابة فى هذا الموضوع:

أولها: أن فن الرثاء يقوم على صدق العواطف وقوتها، فهو يتعلق بالموت والأموات، وليست هناك استثناءات، ولا مجاملات فى مثل هذه الموضوعات .

وثانيها: أردت أن أنصت بعناية لما يقوله شاعر قدير (كابن زيدون) تجاه الراحلين الذين رثاهم، وهل ما يعدده من مناقب وآثار لهؤلاء يعود على الأحياء بشئ أم لا؟ وماذا يمكن أن يقوم به المستمعون لهذا الشعر، حتى لا يكون ألفاظا مرددة تذهب مع الريح.

وثالثها: قناعتى الكاملة بأن منظومة : (الحق والخير والجمال) متأصلة ومتجددة فى تراثنا الأدبى، ومهما كتب عن القدامى فإن هذا لا يمنع من المزيد من التأمل فيما تركوه؛ لنجنى بعضا من تلك الثمار التى تعالج شيئا من قضايا المجتمع وآلامه.

إن الشاعر عندما يصف مرثيا بالعفة، أو التقوى وحسن الخلق، والأمانة، والعطاء، والتعاون على البر، أو يصف سيدة بالعطف على الأرامل واليتامى، وأن محرابها (الخِدر) وأن سريرتها تنطوى على الصيانة والعفاف، إنه يدعو ـ ضمنا ـ إلى هذه الصفات التى تعلى من شأن القيم، وتبنى الإنسان من داخله؛ ليكون إيجابيا أثناء رحلته مع الحياة.

وما سبق يوضح أن الأبحاث الأكاديمية التى تُقَدَّم فى شتى المجالات ، اجتماعية فى المقام الأول؛ لأنها تهتم بقضايا المجتمع ، وما يدور فى أذهان أفراده، وما يصلحهم وما يرسم لهم الخطوط العريضة للتمتع بحياة آمنة مستقرة فلا ضير أن نستفيد من ذكر السابقين للصفات النبيلة التى تعلى من شأن البشرية، كما ننتفع بما يقوله المعاصرون تحت تلك الغاية الرائعة: (الحق ، والخير، والجمال).

وجعلت هذه الدراسة فى تمهيد وفصلين:

ففى التمهيد: تحدثت عن حياة ابن زيدون، وأساتذته، ومكانته الأدبية، ووفاته، ومدلول "الرثاء" وموقف الشاعر منه.

والفصل الأول: خصصته للقيم الموضوعية فى رثاء ابن زيدون وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صفات المرثيين وانتفاع الأحياء بها ٠

المبحث الثانى: صدى المصيبة على المعزَّىٰ ٠

المبحث الثالث: الصبر الإيجابى عند المصائب ٠

الفصل الثانى: جعلته عن الجوانب الفنية فى رثاء ابن زيدون وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الصورة الشعرية ٠

المبحث الثانى: المعجم الشعرى ٠

المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية ٠

ثم أعقبت ذلك بخاتمة أوجزت فيها أهم النقاط التى يمكن الخروج بها من هذا البحث، وأتبعتها بقائمة لأهم المصادر والمراجع، والله أسأل أن يرزقنا الفهم، والإخلاص له، ولكتابه العزيز، ولتراثنا الذى يجب أن نعتنى به ونرعاه حق رعايته، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[1] ٠

بقلم

أ.د/ حسن عطية أحمد طاحون

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

(١) من الآية ٤ الأحزاب ٠

تمهيد
أضواء على حياة "ابن زيدون" وبيئته

ولد أحمد بن عبدالله بن زيدون فى قرطبة سنة ٣٩٤هـ، فى بيت من بيوت أعيانها وفقهائها، فأبوه فقيه من سلالة بنى مخزوم القرشيين، وجده لأمه صاحب الأحكام، الوزير "أبوبكر محمد بن محمد ابن إبراهيم" وكلمة [صاحب الأحكام] تعنى أنه اشتغل بالفقه والقضاء.

فهو من بيت حسب ونسب، وكان أبوه ثريا صاحب أموال وضياع ، وقد اهتم بابنه منذ نعومة أظفاره، فأحضر له الأدباء والمثقفين، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه، وكان هو نفسه أول أساتذته، وكان جم الرواية والمعرفة باللغة والآداب ، توفى[1] بالبيرة، بالقرب من غرناطة، أثناء توجهه إليها لتفقد بعض ضياعه، وحمل إلى (قرطبة)، فدفن فيها[2].

أساتذته :

ومن أساتذته ــ غير أبيه ــ عالم قرطبة الأول فى عصره [أبوالعباس بن ذكوان] وهو غير أبى بكر بن ذكوان قاضى (أبى الحزم بن جهور) الذى رثاه (ابن زيدون) ــ كما سيأتى بعد ــ، ومن أساتذته (المهيمن أبوبكر مسلم بن أحمد) وكان نحويا أديبا متقدما فى علم العربية، واللغة، ورواية الشعر، وكتب الأدب، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق، مجتهدا فى تبصيرهم، متلطفا فى ذلك، فأعجب به ابن زيدون، وعكف على دروسه ومحاضراته.

---

(١) أبوه .

(٢) نوابغ الفكر العربى (ابن زيدون) صـ١٥ باختصار د/شوقى ضيف . ط الثانية عشرة. دار المعارف سنة ١٩٩٠م.

ولم يصنع عقل ابن زيدون من هؤلاء الثلاثة وحدهم، بل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة، وما كان يُلقى فيها من الدروس وضروب التعليم، إذ كان يختلف كغيره من شباب عصره، إلى العلماء والأدباء هناك، فينهل من معارفهم، وثقافاتهم، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشحذ به فكره، ويصقل به لسانه[١].

مكانته الأدبية ووفاته:

"كان ابن زيدون كاتبا وشاعرا، وكان يلقب ببحترى المغرب تشبيها له ببحترى المشرق فى روعة ديباجته وسمو خياله، وحسن فنه، غير أنه يتميز عن بحترى المشرق بجمال وصفه للطبيعة، وإشراكه إياها فى شعوره، ولواعج شوقه"[٢].

لقد عرف ابن زيدون بالذكاء وسرعة البديهة، والثقة فى النفس والاعتداد بالأدب، وقبل هذا كله حفظ القرآن، والحديث النبوى، وحفظ الكثير من الشعر، وعنى بأمثال العرب وحِكَمهم وتاريخهم، مما كان له أكبر الأثر فى شعره ونثره. ونظرا لنبوغه فقد كلفه (أبوالحزم بن جهور سنة ٤٢٢هـ) بالكتابة له، والسفارة بينه وبين أمراء الأندلس حتى لقب "بذى الوزارتين"، ولكن أعداء الشاعر وحساده استطاعوا أن يكيدوا له عند (ابن جهور) فانقلب عليه وسجنه، وهذا الحادث له أكبر الأثر فى حياته، بعد حبه لولّادة بنت المستكفى التى انقلبت عليه بسبب ما لاحظته من مغازلته إحدى جواريها، أو بسبب نقده لبعض شعرها، أو للسببين معا .. وقد استطاع أن يستعطف (ابن جهور) بشفاعة ابنه (أبىالوليد) وكتب إليه رسالته (الجدية)، وكتب رسالة أخرى على لسان (ولادة) إلى ابن

(١) السابق ١٦ ــ ١٧ بتصرف .
(٢) ديوان الشاعر صـ٦ تحقيق كرم البستانى ط دار بيروت سنة ١٩٧٩م.

عبدوس منافسه فى حبها، وسماها الرسالة (الهزلية) وهو يسخر منه ويتهكم به[1].

إذن عاش ابن زيدون بين المنَح والمحَن، وصقلته الأيام والأحداث فمن: (ذى الوزارتين) إلى حب ولّادة وما جره عليه من آلام، إلى غياهب سجن (أبى الحزم) إلى الاستعطاف والعفو ومع هذا كله لم يفتر لسانه عن نظم الشعر البديع فى مختلف الأغراض كالغزل، والمدح، والرثاء ... إلخ ·

وفاته :

وظل شاعرنا مواصلا لعطائه الشعرى والنثرى إلى أن أرسله (المعتمد) [2] إلى (إشبيلية) لتهدئة ثورة هناك، وكانت السن قد تقدمت به، وكان يشعر بمرض أخذ يلم بجسمه الواهن الضعيف، ولم يكد يصل إلى هناك حتى ثقل عليه المرض، وسرعان ما لبى نداء ربه فى الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣هـ[3].

ولكنه ترك للمكتبة العربية تراثا أدبيا خالدا، تتدارسه الأجيال تلو الأجيال، فتقتبس منه الكثير من القيم ، والألفاظ، والمعانى ، والأخيلة، والحِكم الشعرية المؤثرة ·

حول مدلول "الرثاء" وموقف ابن زيدون منه:

يقول ابن منظور: "... رثيت له: رحمته، ويقال: ما يرثى فلان لى: أى ما يتوجع ولا يبالى ورثى له: أى رق له، ورثوت الميت: إذا بكيته وعددت محاسنه.." [4].

---

(١) عصر الدول والإمارات (الأندلس) صـ٤٦٥ بتصرف د/شوقى ضيف ط الثانية دار المعارف سنة ١٩٩٤م·

(٢) المعتمد على الله تولى الخلافة سنة ٤٦١هـ بعد وفاة أبيه (المعتضد بالله) ·

(٣) نوابغ الفكر العربى صـ٢٩ بتصرف ·

(٤) لسان العرب ط دار المعارف ٣/ ١٥٨٣ ·

فلفظ "الرثاء" يدور حول: الرحمة، والتوجع والرقة للآخرين، والبكاء، وتعداد محاسن الأموات. يقول د/ شوقى ضيف : الرثاء من الموضوعات البارزة فى شعرنا ، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم، وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء يتعمق فى القِدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن، مصير الموت والفناء، الذى لابد أن يسير إليه فيصبح أثرا بعد عين، وكأن لم يكن شيئا مذكورا .

والشاعر لا يندب نفسه، وأهله فحسب، بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس، والأهل ممن يحبهم، ويؤثرهم[1].

ولابن زيدون ست قصائد فى فن الرثاء، وهى التى تدور حولها هذه الدراسة.

الأولى: فى رثاء المعتضد ت سنة ٤٦١هـ وتتكون من ٧٣ بيتا.

والثانية: فى رثائه أيضا ومجموع أبياتها ٣٠ بيتا .

والثالثة: فى رثاء ابنته ومجموع أبياتها ٢٥ بيتا .

والرابعة: فى رثاء أمه ومجموع أبياتها ٤٣ بيتا .

والخامسة: فى رثاء أمه أيضا ومجموع أبياتها ٤٩ بيتا .

والسادسة: فى رثاء الفقيه القاضى ابن ذكوان وهى مكونة من ٤٤بيتا.

هؤلاء هم الذين رثاهم الشاعر، وأظن ظنا أن انشغاله بالغزل والاستعطاف لخروجه من سجنه، قد صرفاه عن الإكثار والتنويع فى هذا الفن الذى يقوم على صدق العاطفة وقوتها.

---

(١) سلسلة (فنون الأدب العربى ـ فن الرثاء) صـ٥، ٦ بتصرف . ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٧م.

الفصل الأول
القيم الموضوعية فى رثاء ابن زيدون
المبحث الأول: صفات المرثيين وانتفاع الأحياء بها

كل من انتقل إلى الحياة الآخرة، لابد أن يترك بصمات فى الحياة الأولى، وقد تكون إيجابية أو سلبية، أو بعضها إيجابى، والآخر عكس ذلك، وهذه حقائق مؤكدة؛ نظرا لطبيعة البشر، من ناحية أنهم يأتون بالصواب والخطأ؛ فهم غير معصومين. وفيما يلى بعض الصفات :

١ـ الأُنس، والبِشر، وحسن الخلق، والمكانة الطيبة:

يقول فى رثاء المعتضد:

لئن كان بطن الأرض هُيِّئ أُنْسُه ∴ بأنك ثاويه، لقد أوحشَ الظهرُ
عليك من الله السلام تحية ∴ ينسِّمك الغفران ريحانها النضرُ
وعاهد ذاك اللحد عهد سحائب ∴ إذا استعبرت فى تربه ابتسم الزهرُ
ففيه علاءٌ لا يُسامى يفاعُه ∴ وقدر شباب ليس يعدله قدر[1]

فباطن الأرض قد أنس[2] بالمرثى، وهيأ نفسه لإقامته، وبالتالى فإن ظهرها أصيب بالوحشة[3] وأكد هذا المعنى بـ(اللام وقد):

[لقد أوحش الظهرُ]

وفى هذا النظم دلالة على أن الإنسان يتميز بأنه يؤثِّر بالإيجاب أو السلب فى المحيطين به، ومن خير ما يفعله ويقدمه للآخرين تقديم البِشْر لهم، وإدخال السرور عليهم .

ولهذا نراه يدعو للمرثى ــ فى البيتين التاليين ــ بأن يَسْلَم من الأذى ، وأن تغمره الريح النضرة المحملة بالغفران كلما هبت، وأن يغاث بالرحمة المدرار التى تهطل عليه هطول الغيث على النباتات والزهور، فتبتسم هى الأخرى فتشع الأنس فى أعين وقلوب

(١) ديوان الشاعر ١٧٦ ــ ١٧٧ .
(٢) من معانى المؤانسة: الملاطفة وإزالة الوحشة .
(٣) من معانى الوحشة : الانقطاع وبعد القلوب عن المودة .

الناظرين، فتقدم للبشر ما فيه إسعاد وسمو، ويرجع انفعال التربة وانشراحها إلى تواجد [أوْفَى الملوك] بين ذرّاتها بعد دفنه !!

وفى رثاء القاضى ابن ذكوان يقول:

قمر هوىٰ فى الترب،تحثى[1] فوقه ∴ لله ما حاز الثرى المنهالُ
قد قلت إذ قيل السرير يقله: ∴ هل للسرير بقدره استقلال؟
فهناك نفّاح[2] الشمائل مثلما ∴ طرقت بأنفاس الرياض شمالُ
دانٍ من الخلق المزيّن نازح[3] ∴ عن كل ما فيه عليه مقالُ
شَيَمٌ ينافس حسنَها إحسانُها ∴ كالراح نافس طعمَها الجِريالُ[4]
يا من شأى[5] الأمثال منه واحد ∴ ضربت به فى السؤدد الأمثالُ
نقصت حياتُك حين فضلك كامل ∴ هلا استضيف إلى الكمال كمالُ!
وُدِّعتَ من عُمُرٍ عمرت قصيره ∴ بمكارم أعمارهن طوالُ
أين الحفاوة، روضها غضى الجنى ∴ أين الطلاقة، بشرها سلسالُ؟
أيام من يعرض عليك وداده ∴ يكن القبول بشيره الإقبالُ
فاذهب ذهاب البرء أعقبه الضنى ∴ والأمن وافت بعده الأجالُ
لك صالح الأعمال إذ شيّعتَها ∴ بالبر ساعة تعرض الأعمالُ
حيّا الحيا مثواك وامتدت على ∴ ضاحى[6] ثراك من النعيم ظلالُ[7]

ومطلع البيت الأول فيه ركاكة حيث يشبه المرثى بالقمر، والمتعارف عليه عند أكثر الشعراء أنهم يشبهون به النساء، فى بياضه واستدارته وربما يريد هنا أن يشبه (ابن ذكوان) به فى عموم نفعه، وسعة انتشاره، وهذه وجهة مقبولة إذا أراد ذلك .

ولكننى أرى أن تستبدل كلمة (قمر) بكلمة أخرى مثل: (عبق)، وجملة (هوى) بعبارة أخرى مثل (ثوى) ليكون على هذا النحو:

عبق ثوى فى الترب تحثى فوقه ∴ لله ما حاز الثرى المنهالُ!

---

(١) تحثى فوقه: تهال .
(٢) الشمائل: الطبائع .
(٣) نازح: بعيد .
(٤) الجريال : الخمرة ولونها الأحمر .
(٥) شأى : سبق .
(٦) الضاحى : البارز من الشمس .
(٧) ديوان الشاعر ١٨٧، ١٨٩ .

لأن العبق ــ وهو الرائحة الطيبة ــ عندما يقيم فى مكان فإنه يُطيِّبُ ذلك الموضع؛ ولأن (ثوى) يدل على الحضور والإقامة، ولا شك أن أفعال المرثى ــ وهو من القضاة والعلماء ــ لها أثر ممتد، فدائما يفوح نفعه ويرتشف الناس من سيرته وأخلاقه، وهذا يناسب صيغة المبالغة فى البيت الثالث: [فهناك نفّاح الشمائل]، ولذا فالشاعر يغبط (الثرى) على ما يحوزه، بل ويدعو له:

[لله ما حاز الثرى المنهال]

والنعش إن استطاع أن يحمل جثته، فلن يستطيع أن يحمل قَدْرَه، ومكانته المرموقة، وغزارة علمه، وفقهه وعدله، وخلقه الذى يزينه .

ونلاحظ أنه لم يتطرق إلى وصف جسده وإنما جاء بما يزيِّن الحكماءَ والعلماءَ، وكل آدمى وهو [حُسن الخلق]:

دان من الخلق المزين نازحٌ ∴ عن كل ما فيه عليه مقال!

وبالتالى فإن عجز البيت يؤكد صدره فإذا كان المرثى متحليا بحسن الخلق؛ فإنه يكون بعيدا عن كل نقيصة أو مقالة تحط من قَدْرِه .

والخلق الحسن ــ عنده ــ يقوم على شيم تتنافس فى الحسن والإحسان، وقد جعل (الإحسان) فاعلا للفعل (ينافس) فى قوله:

شيم ينافس حسنَها إحسانُها ∴ كالراح نافس طعمَها الجريالُ

لأن الإحسان هو الذى يجلب (الحسن) المعنوى، ويؤلف بين القلوب، ويذيب العداوات، ويُوجِد الأريحيَّةَ بين الناس، فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها على حد قول الشاعر:

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم ∴ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ويأتى بصورة تقريبية، وهى صورة "الخمر" حيث يتنافس طعمُها ولونُها فى الحُسن، فكذلك المرثى كلما قصدتَه وجدته حَسَنَ الفعل والشيم، ويضرب به المثل فى السؤدد والعطاء، وإذا كانت

حياته محددة بأجل، فإن المكارم التى يأتى بها تكمّل هذا العمر القصير؛ لأن مكارمَه أعمارها طويلة !!

ومن أبرز هذه المكارم ــ التى تؤكدها الأبيات ــ حفاوته ، وطلاقة وجهه، وبشاشته، والقبول الذى يَحظَىٰ به، ولما فقد المرثى فقدت معه هذه الصفات التى هى بمثابة (البرء)، وما خلّفت بعدها إلا (الضَنَىٰ).

وعندما شُيِّع المرثى إلى الدار الآخرة شيعته أعماله الصالحة، فهى تتزاحم فى وداعه؛ ولذا يدعو له فى نهاية الأبيات أن يغيث الحيا قبره، وأن يظلل بالنعيم المقيم. فما أحوج الأحياء إلى تلك القيم النبيلة التى تمس جوهر الروح ، فلم يتحدث عما تركه المرثى من حطام الدنيا، ولا عن وصف جسمه، أو مأكله أو مشربه أو ملبسه، فكلها وسائل لغايات أسمَىٰ منها، ولكنه وجه اهتماماته إلى صفات تشعر الآدميين بإنسانيتهم وتذكّرهم برسالتهم فى الحياة، وهذا هو "الرثاء المصيب الذى يتلمس الفضائل الإنسانية التى كان يتصف بها من يؤبنه الشعر"(١).

٢ ـ العفة والتقوى ونقاء السر والجهر:

العفة مطلب تهفو إليه القلوب، وتتشوق إليه النفوس المطمئنة، وتأنس به الفطرة السليمة، وكفاها شرفا أنَّ طلَبَها النبى ــ ﷺ ــ فى قوله: "اللهم إنى أسألك الهدىٰ والتقىٰ، والعفاف والغنىٰ.."(٢).

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب صـ٢٣١ د/ أحمد أحمد بدوى. ط دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩م.

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود ــ ﷺ ــ : رياض الصالحين صـ٥٢ للإمام النووى. ط. دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ط الحادية عشرة بالرياض سنة ١٩٨٩م.

وقد اجتمعت التقوى مع العفاف فى الحديث؛ لأنهما لا ينفصلان ويؤدى أحدهما إلى تحقُّق الآخر، وهما علامة على حُسن الخلق ، والمروءة، وما أحوج الرجال إليهما!!، وهما فى النساء أكثر جمالا وأشد حاجة؛ ولذا نرى الشاعر وهو يرثى والدة المعتضد يقول:

هنيئا لبطن الأرض أنسٌ مجدد ∴ بثاوية حلته، فاستوحش الظهرُ
بطاهرة الأثواب ، قانتة الضحىٰ ∴ مسبحة الآناء ، محرابها الخِدرُ
فإن أنثيت فالنفس أنثى نفيسة ∴ إذ الجسم لا يسمو لتذكيره ذكرُ
حصان إن التقوى استبدّتْ بسرها ∴ فمن صالح الأعمال يُستوضح الجَهْرُ
يُطأطأ ستر الصون دون حجابها ∴ فيرفع عن مثنى نوافلها الستر
عليها سلام الله تترى تحية ∴ ينشّمها الغفران ريحانها النضرُ[1]

ومع روعة الأبيات وجمالها إلا أنه من غير المستساغ قوله: [هنيئا لبطن الأرض]؛ لأنه فى مقام الرثاء، ومع ذلك فهناك شئ من الطرافة، حيث يوضح أن بطن الأرض قد ابتهج ورحَّب بالمرثية نظرا لأعمالها الزكية التى قدِمَتْ بها على ربها، وإذا كانت الجمادات تأنس بها، وتهش للقائها، فلا شك أن الذين كانوا يتعاملون معها قبل موتها أكثر أُنسًا وهناءةً.

وقوله: [بطاهرة الأثواب قانتة الضحىٰ] تعبير كنائى يدل على التعفف الشديد، يوحى بذلك الجمع فى: [الأثواب]، كما يوحى لفظ [طاهرة] بنقائها فى ذاتها وإشاعة الطهارة الروحية فيمن يحيطون بها؛ حيث لم تتسبب فى إيقاع الآخرين فى الفتن .

وهذه المرثية لا تعتنى بالظاهر وتترك الباطن خربا، بل تقنت من الضحىٰ، وتحرص على التسبيح فى جميع الأوقات: (مسبِّحة الآناء)، ولا تضطر إلى مغادرة منزلها، لأنها فى شغل دائم و(محرابها الخِدر) وهذه الصفات توحى باستمراريتها فى صيانة نفسها، وتقربها من الله جل جلاله.

(١) ديوان الشاعر / ٢٠٥ .

وهى عندما ترحل عن الدنيا، فإن جسدها لا يُبكَىٰ عليه، إنما يُبكَىٰ على ما هو أغلى وهو النفس ... ويلح على صفة (العفة)، فهى عندما تختلى بنفسها فإن التقوى تستبد بسرها، فلا مجال للنزغ والوسوسة، وهذا يدل على كمال العناية بالسرائر، "وقد طلب الله من عباده أن ينقوا سرائرهم من كل غش، وأن يحفظوا بواطنهم من كل كدَر، وأن يتحصنوا من كيد الشيطان بمضاعفة اليقظة، وإخلاص العمل، وصدق التوجه إليه جل شأنه"(١).

ويزداد الأمر وضوحا عندما يبين أن "ستر الصون" نفسه إذا حاول أن يقترب من حجابها فإنه يُطأطِئُ رأسه حياءً من إخباتها وعفافها، وتقواها، وبرِّها، ومعروفها، وتدينها الحقيقى؛ ولذا يدعو لها بالسلام المتتابع، والمغفرة كلما هبت الريح على قبرها:

[عليها سلام الله تترى تحية ∴ ينسمها الغفران ويحانها النضر]

إن الصفات السابقة لا تنفصل عن المجتمع الإنسانى بحال من الأحوال، سواء أكانت متصلة بأموات أم بأحياء، فهى إسقاط على الحاضر لإصلاحه بأضواء الماضى، وتهيئة نفسية لمستقبل مشرق للمتسلحين بمثل تلك الصفات الإيجابية .

٣ ـ الإخلاص والعطاء والإخبات :

الإخلاص هو الأساس فى كل قيمة من القيم المفيدة للفرد والجماعة، بل يجب أن يكون الدافع إلى كل عمل مثمر، وقد قيل فى تعريفه: "هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ... وقيل: هو إفراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالقصد فى الطاعة ... وقيل: هو ألا تطلب على عملك شاهدا غير الله، ولا مجازيا سواه"(٢).

(١) جدد حياتك صـ١٧٦ الشيخ محمد الغزالى. ط الريان . الرابعة سنة ١٩٨٧م.

(٢) تهذيب مدارج السالكين صـ٢٨٣ لابن القيم، تحقيق: مسعد فريد الأشمونى ط دار الغد الجديد بالمنصورة سنة ٢٠٠٥م.

ولا شك أن الصفات السابقة (وهى العفة ، والتقوى ، ونقاء السريرة) تقوم على الإخلاص الذى يغرس صفة المراقبة، وتجعل الفردَ ــ ذكرا أو أنثى ــ عضوًا مؤثِّرًا فى المحيطين به، وقد أكد الشاعر هذه المعانى فى رثائه لأم المعتضد حيث يقول:

لقد أجهشَ[1] الإخلاص بالأمس باكيا ∴ عليك ، كما حنَّ اليقينُ فرجَّعَا
لرزئك تنهل الدموع فمثله ∴ إذا حلَّ، وَدَّ القلب لو كان مدمَعَا
سرير بأملاك وزهر ملائك ∴ إلى جنة الفردوس راح مشيعَا
لتبك الأيامى واليتامى فقيدة ∴ هى المزن أحيَا صوبُه ثم أقشعَا
تبيت مع الإخبات، مسعّرة الحشا ∴ تقية من يخشى إلى الله مرجعَا
إذا ما هى استوفت من البِّرغاية ∴ تأتت لأخرى لا ترى تلك مقنعَا[2]

فالإخلاص هو الذى يتفقدها، ويبكى عليها عند فراقها، واليقين فى حنينٍ إليها، ولمَّا علم بوفاتها أخذ يفعل ما يقوم به العقلاء من أهل اليقين، ويردد قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]، والقلب يؤازر العين ويترجى أن تكون قطرات الدمع نابعة منه فتصير دما بدلا من الماء على هذه الفقيدة التى يحمل سريرها الملائكة، ويشيِّعها الملوك، والأيامىٰ، واليتامىٰ، وهى بالنسبة لمن كانوا يحيطون بها بمثابة السحابة التى أحيا ماؤها الأرض فأنبتت من كل زوج بهيج، ثم تركتْ هذا المكان إلى موضع آخر من الأرض.

هذا بالنسبة للمحيطين بها، وبالنسبة لذاتها فهى: [تبيت مع الإخبات[4] مسعّرة الحشا] فالإخبات أخو سرها، وهى موَّارة من

---

(١) "الجهش: أن يفزع الإنسان إلى غيره وهو مع ذلك يريد البكاء كالصبى يفزع إلى أمه وقد تهيأ للبكاء" [مختار الصحاح صـ٦٣ للإمام الرازى. ط. الثانية ــ المطبعة العصرية بيروت سنة ١٩٩٦م.

(٢) ديوان الشاعر صـ٢١٤، ٢١٥ .

(٣) من الآية ١٥٦ البقرة .

(٤) الإخبات: هو التواضع والخشوع والسير فى الطريق المستقيم "وبشر المخبتين" أى: الخاشعين. القاموس القويم للقرآن الكريم جـ١ صـ١٨٥ إبراهيم أحمد عبدالفتاح . ط المطابع الأميرية سنة ١٩٨٣م.

داخلها، تدفعها دوافع الخير ونزعات البر، إلى العطاء المتواصل، والتنقل من خير إلى ما هو أخير، ومن حَسَنٍ إلى ما هو أحْسَن، وهذا الإخبات يوحى بسلامة الصدر، وإعمال الفكر، ومقاومة الفراغ، ومجاهدة النفس، كما يوحى باستخدام طاقاتها الداخلية فى إسعاد المجتمع، والتعاون البنَّاء لصالح الجماعة، والوقوف إلى جانب الضعفاء الذين لا ناصر لهم إلا الله كالأيامىٰ، واليتامىٰ وغيرهم.

وقد جسَّم شاعرنا [الإخبات] وجعل له معية، والمرثية تعيش فى ظلال تلك المعية، وتصادق هذا الإخبات ونِعمتْ هذه الصداقة، فهى تدل على تدبير الخير فى الخفاء، وهى صفة تُفتقد فى كثير من المجتمعات الإنسانية.

وقوله: [مسعّرة الحشا] فيه دلالة على أنها فى شغل دائم، وأن ضميرها يملى عليها كل ما هو نافع ومثمر، وأنها بعيدة عن الوسوسة، كما يدل التعبير على التجدد والحركة، والتغيُّر، وأن الإنسان فى داخله قوى داخلية تدفعه إلى الخير، وهى ما يعرف فى العلم الحديث "بالإيحاء الذاتى الذى عن طريقه يتخلص المرء من العادات السيئة، ويعمِّقُ ويهذب النافع منها، ويحقق النجاح والثقة فى النفس"[١].

(١) الصحة والعلاج فى الطبيعة والأعشاب صـ ١٩٤ د/ سامى محمود. ط المركز العربى للنشر والتوزيع الإسكندرية ب.ت.

المبحث الثانى
صَدَى المصيبة على المعزَّىٰ .

المصائب فى الدنيا لا تنتهى، ويعيش المرء بين حالين لا ثالث لهما، حال المسرة وتقتضى منه الشكر، وحال المحنة وتتطلب منه الصبر، وقد عبَّر النبى الكريم عن ذلك بقوله ﷺ : "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"(١).

وما دامت المصائب لا تنتهى، فإن العزاء والمواساة لا ينتهيان؛ لأنهما من خُلُق المجتمع الصالح، وفيهما تخفيف عن أصحاب المِحَن والشدائد، بالإضافة إلى الأجر الكبير الذى يناله المؤمن إذا قام بذلك، وقد بيَّنَه الرسول ﷺ فى قوله: "ما من مؤمن يعزِّى أخاه بمصيبة إلا كساه الله ــ عزوجل ــ من حُلَل الكرامة يوم القيامة"(٢).

والمؤمن القوى هو الذى تتماسك نفسه عند البلاء؛ لأن مفردات الإيمان تحققت فيه، ومن هذه الدعائم التى يقوم عليها الإيمان، يقينه فى القضاء والقدر .

إن الأمير عندما يفقد أمه تتجه الأنظار إلى رَدِّ فعله، وهل سيكون قدوة فى الثبات، ومواصلة رحلته مع الحياة أم ماذا يفعل؟ نترك الشاعر ليصور هذا المشهد فيقول:

ألست الذى إن ضاق ذرع بحادث ∴ تبلَّج منه الوجهُ واتَّسعَ الصدرُ؟
تعز بحواء التى الخلق نسلها ∴ فمن دونها فى العصر يتبعه العصرُ؟
نساء النبى المصطفى أمهاتنا ∴ ثوين فمغناهن مذ حُقُبٍ قفرُ

---

(١) رواه مسلم عن أبى يحيى صهيب بن سنان ــ ﷺ ــ [رياض الصالحين صـ٣٥] .

(٢) رواه ابن ماجة عن عمرو بن حزم ــ ﷺ ــ [الأذكار للإمام النووى صـ٢٠٣ تحقيق/ أحمد عبدالله باجور . ط. الأولى . الريان سنة ١٩٨٨م] .

وجازيتَها الحُسنىٰ فأمٌّ شفيقةٌ ∴ تحفَّىٰ بها ابنٌ، كلُّ أفعاله برُّ
تمنت وفاة فى حياتك بعدما ∴ توالت، كنظم العقد آمالها النثرُ
كأن الردى نذرٌ عليها مؤكد ∴ فإن أُسعفت بالحظ فيك وَفَى النذرُ[1]

فالاستفهام فى قوله: [ألست الذى إن ضاق ذرع بحادث]؟ للتقرير، فهو يقرر قيمة إنسانية مؤثرة، حيث يستقبل الأمير أحداث وفاة أمه باليقين والاستبشار فمادة (بلج) تدور حول: النضرة، والسرور، والإشراق وهذا ما عبر عنه بقوله:

[تبلّج منه الوجهُ واتسع الصدر]

ولما رآه ثابت الجنان ، نضر الوجه، مطمئن النفس، التمس منه[2] أن يتأسى بأمنا "حواء" التى أنجبت الخَلْق جميعا، ومَنِ التى تضاهيها فى أى عصر من العصور التى يتلو بعضها بعضا؟ ثم ينتقل إلى التأسى بنساء النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ حيث لم يملأ فراغهن أحد من نساء العالمين :

[فمغناهن مذ حقب قَفْرُ..]

ويتوجه إليه مباشرة، فيوضح أنه برٌّ بأمه حية وميتة؛ لأنها تُوصف بالشفقة، ومن شدة شفقتها أنها تمنت أن تتوفى فى حياة ابنها، بعد توالى أمانيها وتحققها، وكأنها نذرت أن تذهب إلى الردَىٰ بعد أن أسعفها الحظ في ابنها ... وقد تجاوب "الردى" معها فنذر هو الآخر أن يأتيها بعد تحقق آمالها، وكأنها عقد منظوم، وهذا يدل على منتهى البر من جهة الابن، ولذلك قام الردَىٰ بالوفاء بنذره، بأن تذهب هى ويبقى الابن:

[فإن أُسعفتْ بالحظ فيك وَفَى النذر]

وفى هذا المشهد قيم كثيرة ينتفع بها الأحياء، فالوالدان هما أولى الناس بالوفاء والبر، والدعاء، وحُسن المعاملة ، وقد ظهر أثر

---

(١) ديوان الشاعر صـ٢٠٦ .
(٢) من خلال فعل الأمر: [تعز] وهو للالتماس والنصح لأنه من الأدنى إلى الأعلى .

هذه القيم على المعزَّىٰ (الابن) حيث وصل إلى مكانة مرموقة في المجتمع بفضله تعالى، ثم بفضل دعاء الأم التي:

تولتْ فأبقتْ من مُجابِ دعائها ∴ نفائس ذخرٍ، ما يقاس به ذخرُ
تتم به النعمىٰ، وتتسق المنىٰ ∴ وتُستدفع البلوى، ويُستقبل الصبرُ[1]

ويلاحظ أنه جاء بعبارتي: "حوّاء" و"نساء النبي" نظرا للمقام لأن المتوفاة سيدة؛ ولأن التأسي بالسابقين الأولين من الصالحات والصالحين يهوِّنُ المصائب كما يلاحظ أنه مزج بين الرثاء، والثناء على ابن المتوفاة؛ لوجود التفاعل بين الأم وولدها من ناحية، ولأنه قدوة في موقعه من حيث الإمارة؛ فإذا كان رابطَ الجأش قويَّ العقيدة، فإن ذلك يؤثر ــ قطعا ــ في رعيته؛ ولذا يقول عثمان بن عفان ــ ﷺ ــ : "ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن"[2].

وفي المناسبة ذاتها يقول:

عزاء فدتك النفس عزم مُسَلِّم ∴ لموقعِ أمرٍ لم يَزَلْ متوقَّعَا
متى ظننتِ الأيام أنك جازع ∴ أو استشعرت في فلِّ صبرك مطمعَا
فما أربدَّ وجهُ الخطب إلا لقيته ∴ بصفحةِ طلقِ الوجه أبلج أروعَا
وما كنت أهلا أن يُصيبك حادث ∴ فتصبح عنه موصَد القلب موجَعَا[3]

فمن حُسن تخاطبه مع من يعزِّيه قوله: [فدتك النفس]، فذلك يشعره بالفداء والتضحية والمشاركة الوجدانية، والوقوف إلى جواره قلبا وقالبا، ويذكِّره بعزيمة المسلِّم لله في كل ما يُجريه من قضاء وقدَر، وحتى يهوِّن على المعزَّىٰ أن أمر الموت: [لم يزل متوقَّعا]، ولكنه يستشعر قوة النفس، ورسوخ العقيدة لدى المخاطب؛ ولذا جاء بهذا الاستفهام القائم على النفي:

[متى ظننت الأيام أنك جازع؟]

---

(١) السابق والصفحة .
(٢) معجم الاستشهادات صـ٢٦٧ د/ علي القاسمي. ط الأولى مكتبة لبنان سنة ٢٠٠١م.
(٣) ديوان الشاعر صـ٢١٧ .

ويُفهم من هذا أن صفة "التجلد" هى التى تتراءى لكل من يشاهده، ومن براعته فى التعبير أن ينسب الظن (بمعنى الاعتقاد) والاستشعار عن بُعد للأيام، وها هى الخطوب تتوالى فما يَلْقاها إلا بطلاقة وجهٍ تدعو إلى الإعجاب به، حيث لا تؤثر فيه الحوادث، ولا تتسلل إلى قلبه الأوجاع:

وما كنت أهلا أن يصيبك حادث ∴ فتصبح عنه موصدَ القلب موجَعا

إذن يجب أن تترك المصيبة آثارا إيجابية على المعزَّىٰ منها: القوة، والتسليم لأمر الله، واليقين فى القضاء والقدر.

ويفطن الشاعر إلى شئ مهم يتعلق بالأموات، وله صلة بالأحياء وهو: رعاية ذرية المرثى بعد رحيله، وهذا ما يسمى فى الشريعة الإسلامية "بكفالة اليتيم"، ويبدو أن الفقيه القاضى "ابن ذكوان" ــ الذى رثاه شاعرنا ــ قد ترك ذرية تستحق الرعاية؛ ولذا فهو يُطَمْئِنُ ذويه بأن الأمير سيقوم بما يُمليه عليه دينه ومروءته تجاههم:

سيحوط من خلفتَه مستبصر ∴ فى حفظ ما استحفظتَه لا يألو[1]
كفل الوزير أبو[2] الوليد بجبرهم ∴ إن الوزير لمثلها فعّالُ
ملِك سجيته الوفاء فما له ∴ بالعهد فى ذى خُلة إخلالُ
حتمٌ عليه لعًا[3] لعثرة حالهم ∴ قد تعثرُ الحالات ثم تُقالُ[4]

ومدلول الأبيات يوحى بحسن الظن فى المعزَّىٰ، بل ويكلفه بطريق غير مباشر بالوقوف إلى جانب أهل المرثى، وسد خللهم، وجَبْر كسرهم، فالوفاء سجيته وقضاء الحوائج من مكونات فطرته، وإغاثة الملهوف من دلائل أخلاقه، إلى أن يكبر الصغير، وتستقيم سائر الأمور، على حد قول الشاعر:

---

(١) ألا ، يألو ، ألوا وألوا . قصر وأبطأ .
(٢) يريد: أباالوليد بن جهور الذى ولى الخلافة بعد أبيه سنة٤٣٥هـ.
(٣) لعا : دعاء للعاثر .
(٤) ديوان الشاعر صـ١٨٩ .

وقد يستقيمُ الأمرُ بعد اعوجاجهِ ∴ وتـــنهضُ بـــالمرء الجـــدودُ العـــواثرُ

الجدير بالذكر أن خطاب الشاعر للأمير "أبىالوليد" وأن رعاية ذلك الأمير لأبناء القاضى "ابن ذكوان" يأتى فى إطار أن المرثى رمز من رموز الدولة الأندلسية فى ذلك الوقت وأن الحاكم أو الخليفـــة ــ بصفته ــ يرعى شئون هؤلاء العباقرة فى حياتهم ، وبعـــد ممـــاتهم، فهو يعزيه من ناحية، وينكّره بدوره الوظيفى والإنسانى من ناحيـــة أخرى ... وبهذا المفهوم يكون الأثر الذى تركه كـــل مـــن المرثـــى، والأمير (المعزّى) إيجابيا وفعّالا؛ لأن القدوة تحققـــت فـــى كليهمـــا، والأثر الاجتماعى قد جناه المجتمع من تلك المواقف، وبهـــذا يكـــون للرثاء قيمة مؤثرة للأحياء والأموات.

المبحث الثالث
الصبر الإيجابى عند المصائب

الموت نهاية كل حى، ولا يبقى إلا وجهه الكريم ــ عزوجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1] ، وهذا الأمر يتطلب يقينا راسخا، وعملا يشرِّف صاحبَه عند لقاء ربه، وعند البعث والحساب، وهذا ما يميز المؤمن عن غيره، ممن يدَّعُون أن الحياة الدنيا نهاية المطاف، ولا شئ بعدها.. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2].

والإنسان عندما تصيبه المصائب إما أن يقابلها بثبات وصبر، أو يقابلها باضطراب وخَوَر وهذا ما نراه جليا فى قول ابن زيدون:

هوالدهر فاصبر للذى أحدثَ الدهرُ ∴ فمن شيَم الأبرار فى مثلها الصبرُ
ستصبر صبرَ اليأس أو صبرَ حسبة ∴ فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزرُ
حذارك من أن يعقب الرزء فتنةً ∴ يضيق لها عن مثل إيمانك العذرُ
إذا آسف[3] الثكلُ اللبيبَ فشفَّه ∴ رأى أفدح الثكلين أن يهلك الأجرُ[4]

ونراه ينسب الأحداث للدهر: [فاصبر للذى أحدث الدهر] ولعله يقصد أن الدهر مسرح الأحداث والخطوب جميعها، ثم يمهد لقيمة الصبر من خلال إشعار مخاطبه أنه من "الأبرار" الموصوفين بأنهم صابرون، وذلك عن طريق هذه الجملة الخبرية التى تحمل معنى مستقلا يجرى مجرى المثل: [فمِن شَيَم الأبرار فى مثلها الصبر] والصبرُ عنده قسمان:

أ - صبر يأس، حيث لا يجد صاحبه أمامه إلا هو، فيصير اضطرارا، ولا أثر للوازع الإيمانى عنده، علما بأن أمر الله نافذ لا محالة.

---

(١) ٢٦، ٢٧ الرحمن .
(٢) من الآية ٥ الكهف .
(٣) آسف : أحزن .
(٤) ديوان الشاعر صـ١٧٥ .

ب - وصبر احتساب يراعى فيه صاحبُه الربط بين الأحداث والمشاعر فيضبطها بالإيمان والتسليم لاحتساب الأجر عند مَنْ لا يضيع عنده مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض؛ ليقينه الراسخ أنه فى موضع ابتلاء فإما أن يخسر الأجر، أو يربحه، ومع أن الأمر متروك للمخاطب لا يتركه الشاعر لحرصه على البر، فيتدخل بأسلوب النهى محذرا من السلبية والضياع الإيمانى فيقول:

[فلا تؤثر الوجهَ الذى معه الوزر]

ويستمر فى بيان لهفته على جانب الرضا والتسليم، اللذين هما ثمرتا الصبر الجميل، فيؤكد أنه من غير المعقول أن تترك المصيبةُ مصيبة أخرى هى (الضجر) فيعجز المؤمن عن تقديم العذر يوم القيامة إذ لا عذر له.

واللبيبُ الألمعى يوازن بين المصيبة والأجر ، وسيرى أن البوار كل البوار فى فوات الأجر والثواب، وهذا يرجع إلى إعمال عقله فى الأحداث التى تجرى عليه، فالأحزان والمسرات تتوالى، ويخلُفُ بعضها بعضا كما يخلف الليل والنهار؛ ولذا فإن عقله الرشيد يحتم عليه أن:

[أفدح الثكلين أن يهلك الأجرُ]

ولا أتفق مع الشاعر فى نسبته الأحداث للدهر؛ لأن الدهر ما هو إلا وِعاءٌ للأحداث، ويتكون من الأيام والليالى والساعات والدقائق والثوانى، وهذه المفردات لا تملك ولا تعمل شيئا للإنسان أو الأحداث. إلا إذا أراد إسناد الأحداث للدهر على سبيل المجاز، فهذا شئ آخر، ولكن الكثيرين يُحمِّلون الدهر ما لا يمكن أن يتحمله بحال.

يُذكر أن الأبيات السابقة جاءت فى رثاء المعتضد بالله المتوفى سنة ٤٦١هـ.

وعندما توفى الفقيه القاضى "ابن ذكوان سنة ٤١٣هـ" رثاه بقصيدة طويلة عدد فيها محاسنه، وحث أهله وذويه على الصبر الجميل فقال:

إيها[1] بنى ذكوان إنْ غَلَبَ الأسىٰ ∴ فلكُمْ إلى الصبر الجميل مآلُ
إن كان غاب البدرُ عن ساهوره[2] ∴ منكم، وفارق غابَه الرئبالُ[3]

فهو يتوجع معهم على فقدان القاضى ويؤكد أن الحزن عليه يغلبهم المرّة تلو المرة، ولكن مرجعهم ــ دائما ــ إلى الصبر الجميل، وهو بمثابة البدر، فإن كان هذا يضئ الدنيا بضوئه، فالمرثى يضيئها بعلمه وفقهه وعدله، وهو أيضا بمثابة الأسد فى قوته، وشجاعته فى الحق وما والاه .

وربطه فى البيت الأول بين الأسَىٰ والصبر الجميل له مغزاه فى ترسيخ قيمة الصبر التى تعدُّ لازمةً من لوازم الحياة كالماء والهواء فى أى مجتمع بشرى ... وقد صاغ هذه المعانى فى أسلوب خبرى مؤثر ، بيّنَ من خلاله هويتهم وتوجهاتهم حيث يرجعون إلى الدين فهو نبع الصبر والاحتساب:

[فلكم إلى الصبر الجميل مآل]

ولما ماتت والدة المعتضد سنة٤٣٥هـرثاها بشعر قيّم ذكر فيه الكثير من صفاتها[4]،وجعل من بين تلك الصفات:(دعواتها المستجابة) ومن هذه الدعوات أن يرزق ابنها صبرا يستقبل به الشدائد :

تولت فأبقت من مُجاب دعائها ∴ نفائس ذخر ما يقاس به ذخرُ[5]
تتم به النعمىٰ ، وتتسق المنىٰ ∴ وتُستدفع البلوى، ويُستقل الصبرُ

---

(١) إيها : اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل معهود، ويكنى به للاستمرار فى الاستزادة .
(٢) الساهور: دارة القمر. الرئبال : الأسد .
(٣) ديوان الشاعر صـ١٨٩ .
(٤) ستأتى هذه الصفات فى موضعها من البحث بإذن الله .
(٥) الذخر: الشئ الذى يجمع، ويحفظ لوقت الحاجة إليه ، ويقال بالدال: دخر .

فلا تهضْ[1] الدنيا جناحك بعدها ∴ فمنك، لمن هاضت نوائبها جَبْرُ[2]

ولابد من تأمل الأفعال المختلفة فى هذه الأبيات، فالأفعال الماضية تدل على أن المرثية قضَتْ نحبها: (تولَّت ـ فأبقت)، والأفعال المضارعة (تتم به النعمىٰ .. وتتسق المنىٰ . وتُستدفع البلوى ... ويُستقبل الصبر) تدل على أنها أبقت شيئا نفيسا مُدَّخَرا لابنها الأمير وذويه، فهم جميعا يجنون ثمار هذه الدعوات ، حيث تتم النعمة، وتتحقق الأمنيات، وتدفع البلايا، وتستقبل الأحداث والمصائب بصبر راسخ، وهذه الأمور المتعلقة بالأفعال المضارعة، تجمع أحوال الأحياء تقريبا؛ لأن الإنسان يعيش بين النعمى تارة والبلوى تارة أخرى، ويأتى دور الصبر ليكون رائدا فى الحالين، ففى السراء يصبر على توظيف النعمة وشكرها، وفى الضراء يتأكد الصبر ويجب أن يتضاعف حتى لا يفقد المثوبة والدرجات العُلا عند الله تعالى.

وفى البيت الثالث يخاطب ابن المرثية ليؤكد معنى الصبر القوى، فينهاه عن الانكسار والتضعضع: [فلا تهض الدنيا جناحَكَ..]؛ لأنك أقوى من ذلك حيث تجبر الذين كسرتهم النوائب وأثرت فيهم، فتقوّى ضعفهم، وتشد من أزرهم: [فمنك لمن هاضت نوائبها جَبْرُ..].

وجملة : [ويُستقبل الصبر] لها من الدلالات ما لها، فالشئ المستقبل يتطلب مستقبِلا[3]، وهذا يوحى بأنهم يوطّنون أنفسهم على استقبال الصبر استقبالا حسنا فى جميع أحوالهم (الحال والمآل).

ولا شك أن مصيبة الموت من أكثر المصائب احتياجا إلى الصبر الجميل، القائم على جذور الإيمان، ودعائم اليقين، وهذا الموت

(١) لا تهض : لا تكسر الدنيا جناحك .
(٢) ديوان الشاعر صـ٢٠٦ .
(٣) بكسر الباء (اسم فاعل).

لا يرده شئ فى الوجود، وهذا ماأكّده الشاعر عندما رثا ابنة المعتضد التى توفيت سنة ٤٥٨هـ فيقول:

أنتَ طب[1] إن داءَ الـ .·. موت قد أعيا الدواء
فتأس[2] إن ذاك الـ .·. خطب غالَ[3] الأنبياء
وسيفنى الملأ الأعـ .·. لى إذا ما الله شاء[4]

فيؤازر والد المرثية، ويذكره بعلمه اليقينى أن داء الموت لا ينفع فيه دواء ولا أعشاب، ولا عقاقير، ويلتمس منه الصبر (فتأس) إذ الموت قد عمّ الأنبياء، وسيعم الملائكة بعد أن يأذن الله بفناء العالم كله حتى ملك الموت نفسه ٠

وقد مزج بين الأسلوبين الخبرى والإنشائى، فهناك حقائق لا يختلف عليها أحدٌ كحقيقة الموت؛ ولذا جاء معها بما يناسبها، فجاء بالفعل الماضى وأدخل عليه قد: [قد أعْيا الدواء]، وجاء بأنّ المؤكدة لهذه الحقيقة فى البيتين:

[أن داء الموت ...]٠

[إن ذاك الخطب غال الأنبياء]٠

وجاء بالفعل المضارع المقترن بالسين [وسيفنى] للدلالة على المستقبل الذى يتطرق إليه الموت، فهو يستغرق الزمن كله (الماضى، والحاضر، والمستقبل) ويستغرق الخَلْقَ كلَّه عامة الناس، وصفوتهم (وهم الأنبياء والملائكة)٠

ويقول فى رثاء المعتضد أيضا:

أعباد. يا أوْفَى الملوك لقد عدا .·. عليك زمانٌ من سجيته الغدرُ
أانفس نفس فى الورى أقصد الردى .·. وأخطر[5] علق للهدى أقصد الدهر؟

---

(١) طب : عالم ٠
(٢) فتأس: اصبر ٠
(٣) غال : أهلك ٠
(٤) ديوان الشاعر ١٣٤ ، ١٣٥ ٠
(٥) خطر يخطر خطرا وخطورة: عظم وارتفع قدره فهو خطير ٠

فلا ثنت المحذورَ عنك جلالةٌ ∴ ولا غرر ثبت، ولا نائل غمرُ[1]

فنراه يستخدم (الهمزة) لنداء القريب؛ فهو دان من نفسه فى المنزلة، ويستخدم حرف الياء فى ندائه أيضا ولكنه يصفه بالوفاء، أو ينادى الوفاء فيه ويندبه، وهى صفة طيبة فى عامة الناس، وفى الملوك أعظم أثرا وأكثر نفعا.

وتكرار النداء يدل على الحسرة والألم لفقد هذا الملك الوَفِىّ، ولكننى لا أوافقه على إلصاق "الغدر" بالزمان فى قوله: [لقد عدا عليك زمانٌ من سجيته الغدرُ] فالزمان لا يتأتى منه تجاوز، ولا غدر، ولا اعتداء، ولا قبض للأرواح، وربما نسب هذه الأشياء للزمان لتأثره الشديد بفقد المرثى، ويتضح هذا من البيت الذى يليه فيذكر أن الردَىْ يقصد أنفس إنسان فى الورَىْ ــ وهذه مبالغة منه ــ ويتوجه إلى ذوى الرفعة والشأن الذين تتعلق قلوبهم بالهدى كتعلق المحبوب بالمحب، ولكنه فى البيت الثالث يعود إلى عقله الراجح فيؤكد أن المحذور (أى الموت) لم تثنه أبهةُ الملك ولا عظمته ولا نفوذه، ولا أهل الثقة، ولا العطاء الجزل الذى قام به المرثى فى حياته.

وألمح التصبر من خلال كاف الخطاب فى قوله: [فلا ثنت المحذور عنك جلالة] وكأنه يقول لذويه: هذا أمر الله الذى لم يدفعه عنه سلطان ولا جاه، وما لحق بالسابقين لابد أن يدرك اللاحقين؛ لأن "الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم"[2].

(١) ديوان الشاعر صـ١٧٦ .
(٢) عصر الدول والإمارات (الأندلس) صـ٣٣١ د/ شوقى ضيف ط الثانية دار المعارف سنة ١٩٩٤م.

الفصل الثانى
الجوانب الفنية فى رثاء ابن زيدون
المبحث الأول: الصورة الشعرية

الصورة الأدبية من أهم الخصائص التى تميز الشعر عن غيره من فنون القول، بل هى التى تميز الشاعر عن أقرانه.

وتُعرَّف عند بعض الأدباء بأنها: "التركيب القائم على الإصابة فى التنسيق الفنى الحى لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر ــ أعنى خواطره ومشاعره وعواطفه ــ المطلق من عالم المحسوسات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى فى إطار تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر فى الآخرين"(١).

وقد ربط هذا المفهوم بين مشاعر وعواطف المبدع من جهة ... وإيقاظ خواطر ومشاعر المتلقى من جهة أخرى، وهذا الربط هو قمة الإبداع المشترك بين الطرفين؛ لأنه ينمّى قيمة : (التأثر والتأثير) وهما غاية العمل الأدبى وثمرته .

والصورة فى الشعر الرثائى لابن زيدون مليئة بالتموجات، والدفقات الشعورية المؤثرة، ويرجع هذا ــ فى رأيى ــ إلى امتلاكه لناصية اللغة، وتمكنه من صياغتها، ودرايته بعلم الدلالة .

ولذا نراه ينوع فى استخدام المجاز فأحيانا تقوم الصورة على التشبيهات وأخرى تقوم على الاستعارات، وثالثة تقوم على تجسيم المعنويات وتشخيصها وقد تأتى صوره على شكل جزئى ــ وهو الكثير الغالب ــ وقد تكون صوره كلية وهى قليلة.

فمن صوره الفنية القائمة على التشبيه قوله فى رثاء (ابن ذكوان):

الآن بيّن للعقول زوالُهُ ∴ أن الجبال قصارهنّ زوالُ

---

(١) الصورة الأدبية . تأريخ ونقد صـ١٤٩ د/ على على صبح ط.الحلبى بالقاهرة د.ت.

إن كان غاب البدرُ عن ساهوره ∴ منكم، وفارق غابَه الرئبالُ[1]

ففى البيت الأول يشبهه ـ ضمنيا ـ بالجبال فى رسوخها ، وثباتها، وقوتها ونفعها، وعدم تأثرها بالعوامل التى تضعفها ، وجعل الزوال يقف خطيبا مبينا، يخاطب أشرف ما فى الآدميين (وهو العقل)، ويقنعهم أن الزوال هو منتهى الكائنات والشاعر أحسن فى اختياره لكلمة: (العقول)؛ لأنه يبتعد عن العواطف الملتهبة بهذا الانتقاء، ويجعل المخاطب متأملا ومتفكرا فى النهايات المصيرية لكل حى.

وفى البيت الثانى يشبهه بالبدر الذى فارق منزله، وبالأسد الذى غادر عرينه، والوجه فيهما الضياء والانتشار والطمأنينة فى الأول، والشجاعة والقوة فى الحق بالنسبة للثانى.

وفى موضع آخر يشبهه بقطب الرحَى[2]، ويشبه الحسود بالثفال[3]:

فجعت رحى الإسلام منك بقطبها ∴ ليت الحسود فداك فهو ثفالُ[4]

والتشبيهان لهما دلالتهما القوية، فالرحى تكون دائرية؛ وكذلك الإسلام يعم جميع الأرض، والمرثى بمثابة الوتد الحديدى القوى الذى يعمل بالرحى وله، وكذلك هو يعمل بالإسلام وله ... وهناك دلالة أخرى لطبق الرحىٰ العليا الذى يكون الإسلام شبيها به، فهو يظلل العالم الأرضى، ولن تستقيم حياة البشر إلا به، كما لا تعمل الرحى إلا بشقيها السفلى والعلوى!

---

(١) ديوان الشاعر صـ١٨٧ ـ ١٨٩ .

(٢) قطب الرحى: الحديدة القائمة فى وسط الرحى السفلى، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا .

(٣) الثفال: ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه؛ ليقى ما يسقط عند الطحن من التراب .

(٤) ديوان الشاعر صـ١٨٨ .

وتشبيه الحسود بـ(الثفال) يدل على مهانته، وانحطاط درجته.

وفى رثائه لأم المعتضد يقول:

وشمس هدى أمس لها الترب مغربا ∴ وكان لها المحراب فى الخِدر مطلعا[1]

فهى كالشمس، ولكنها شمس من نوع خاص، هى شمس الهداية، وليست المعروفة فى كبد السماء ... هى شمس تطلع فى الخِدر .. وتغرب فى التُّرب، وهذه صورة مركبة، لأنها تحمل معنى كنائيًّا مدلوله شدة التستر والعفاف ... وكما أن البشر لا يستطيعون أن يصلوا إلى شمس السماء، فكذلك هى لا يستطيع أحد أن يقترب منها، وكما أن شمس السماء تُصدِر الطاقة والدفء والنفع لكل الكائنات ... فكذلك المرثية يصدر عنها الهدى، والنور، والنفع لكل المحيطين بها.

وفى موطن آخر يشبهها بالمُزن فيقول:

لتبك الأيامىٰ واليتامىٰ فقيدةً ∴ هى المزنُ أحيا صوبُه ثم أقشعا[2]

والصورة هنا واقعية ومعبرة؛ لأنه يصورها وكأنها سحابة تجود بالغيث على الأيامىٰ واليتامىٰ بصفة خاصة، وهما أقرب شئ إلى قلب المرأة العربية، وتختصهما بالمزيد من الحنان والعطاء، ولهذه الحِكمة صدر البكاء على الفقيدة منهما أولا.

وقوله: [هى المزن] فيه قصر موصوف على صفة الإغاثة والعطاء بلا مقابل ، وطريق القصر تعريفُ الطرفين . والفعلان: [أحيا .. وأقشعا] يَدُلاّن على الحركة والحيوية فى الصورة، وقد أسندهما إلى ما لا يعقل وهو المطر، وكما لا يخفىٰ تأثيره، فإن تأثير المرثية لا يخفىٰ أيضا .

ومن صوره القائمة على الاستعارة قوله فى رثاء المعتضد:

إلى أن دعاه يومُه فأجابَه ∴ وقد قدم المعروف واستمجد الذخرُ

---

(١) ديوان الشاعر صـ٢١٤ .

(٢) ديوان الشاعر صـ٢١٥ .

وعاهد ذاك اللحد عهد سحائب ∴ إذا استعبرت فى تربه ابتسمَ الزهرُ[1]

فاليوم المحدد لانتهاء أجل المرثى يقف ويدعوه، ولابد من الإجابة؛ لأنها حتمية، ولما وصل إلى قبره وجد أن المعروف الذى كان يصنعه قد سبقه وكذلك أمجاده التى كانت مُدَّخرة.

وفى البيت الثانى يرسم صورة لذلك العهد المبرم بين اللحد، والسحب، حيث يتم الاتفاق على أن يجود عليه بالغيث، فيبرم اتفاق آخر بين التراب والزهر على أن يفى الثانى بالابتسام والأنس، وهذا يدل على أن ترابَ اللحد يأنس لوجود المرثى فوق ذراته، وهى صورة قوية تدل على العلاقة الوثيقة بين الميت وما يقدمه لنفسه فينفعه فى قبره.

إن قيام اليوم الأخير من عمره بهذه الدعوة الإجبارية، وعقد هذه العهود بين السحب واللحد والأزهار لتقوم على الاستعارات التى تجعل الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعانى الخفيَّة بادية جلية[2]!!!

ويستخدم شاعرنا التشخيص فى صوره الأدبية كثيرا، "وهو أرقى أنواع الخيال، وصورته إنسانية من أقوى أنواع الصور، فهو يجسد المعنى، ويبعث الحياة فى الصلب الجامد، ويوجد الرموز للمحسوسات، ويجسم الأفكار التى تتخايل من وراء الصور، وتقوم الحيوية فيه مقام البرهان العقلى، وهو الدليل الوجدانى الناطق الذى لا يعرفه إلا الشعور ..." [3].

يقول الشاعر فى رثاء أم المعتضد:

لقد أجهش الإخلاص باكيا ∴ عليك، كما حَنَّ اليقينُ فرجَّعَا
وأن التقى قد آذنتنا بفرقة ∴ وأن الهدى قد بان منك فودِّعَا

---

(١) ديوان الشاعر صـ١٧٧ .
(٢) أسرار البلاغة صـ٤٩ بتصرف للإمام عبدالقاهر الجرجانى.
(٣) الصورة الأدبية صـ١٢٦ د/ على على صبح .

تبيت مع الإخبات مسعرة الحشا ∴ تقيَّة من يخشى إلى الله مرجعا[1]

فها نحن نرى الإخلاص وهو يبكى ؛ لأنه فقَدَ من كانت تؤويه، فأصبح شريدا وها هو اليقين الذى يحنُّ إليها ولما فقدها سلَّم بمراد الله وأرجع الأمور إليه وهذه هى التقوى التى وقفت تُؤذِّنُ فى الناس بفراق المرثية، والإخبات الذى لازم سرها وعلنها ، وكذلك الهدى ، يقفان وهما يودِّعان الفقيدة ، ويبكيان ذلك الفراغ الكبير الذى تركته .

وكما شخَّص الإخلاص، واليقين والتقوى، والهدىُ، والإخبات، يشخص "الشيم" و"العمر" فيقول فى رثائه لابن ذكوان:

شَيَمٌ ينافس حسنَها إحسانُها ∴ كالراح نافس طعمَهَا الجريالُ
وُدِّعت عن عمر عمرتَ قصيره ∴ بمكارم أعمارُهُنَّ طوالُ[2]

فنرى شيمَه الطيِّبةَ وهى تتنافس للحصول على الأمجاد. والمحاسن، والمكرمات، وهى لا يتأتى منها ذلك ، ولكنها تعلمت من صاحبها فتطبعت بطبعه حيث المسارعة إلى الخيرات ... ويأتى بالتشبيه مع التشخيص، حيث يشبه تنافس تلك السجايا بالراح التى يتنافس طعمها ولونها لتحقيق الحُسن فيها، والصورة فيها حركة، وحياة، ولون وتموج يوحى به الفعل المضارع:

[ينافسُ حسنَها إحسانُها !!]

وفى البيت الثانى نرى البراعة وهو يشخص عمر المرثى حيث كان قصيرا، ولكنه طوله بالمكارم التى بقى أثرها بعد رحيله، وهى دعوة ضمنية لمكارم الأخلاق التى تجعل عمر الإنسان ممتدا بعد انتقاله إلى الدار الآخرة، على حد قول الشاعر:

---

(١) ديوان الشاعر ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٢) ديوان الشاعر / ١٨٩ .

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ∴ فالذكرُ للإنسان عمر ثانى[1]

وخلاصة القول: فإن الصورة الفنية عنده ـ مع إيجازها ـ تعدُّ لوحة إيضاحية لشخصيته، وثقافته اللغوية وهو يميل فيها إلى الحركة أكثر من اللون والصوت. والحركةُ هى الحياة.

(١) الشوقيات جـ٢ صـ٦٠١ تعليق د/ يحيى الشامى ط. الأولى بيروت سنة ١٩٩٦م.

المبحث الثانى
المعجم الشعرى

ألفاظ الشاعر قطعة من عقله ، لأنه يصبُّ فيها ما يريد من المعانى التى يخرجها إلى الآخرين، ولابد أن تكون ألفاظه ملائمة للتجربة التى يدعو المتلقى من خلالها إلى أن يشاركه فيها، ولعل هذا هو المراد من مصطلح المعجم الشعرى.

ولا شك أن لذلك المصطلح علاقة بمسألة اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون، وهى قضية قديمة متجددة، ويدور حولها جدل كبير بين النقاد، ولكنه جدلٌ مثمرٌ حيث ينقل لنا خصوبة الفكر، وعصارة العقل، علما بأن اللفظ والمعنى فى غاية الأهمية، ولا يُستغنىُ بأحدهما عن الآخر، واللفظ البليغ الموافق للمضمون يؤدى دوره، ويؤتى ثماره، ويجد ارتياحا واستجابة لدى المتلقى.

يقو د/ محمد غنيمى هلال: ومسألة الألفاظ من مسائل علم الجمال الحديث، وقد شغل بها الأقدمون قبل أن يعالجها العرب، وتحدث فيها هؤلاء وأولئك عن المعايير الجمالية الموضوعية التى تعد من أسس الحكم على العمل الأدبى من الناحية الفنية، وعلى الرغم من أن مادة التعبير الأدبى هى الجمل بما تشتمل عليه من ألفاظ منظومة أو منثورة يُستعان بها على محاكاة الأشياء والأفعال كما قرر ذلك (أفلاطون) و(أرسطو) من قبل، فليست أول القواعد الجمالية مقصورة على ما يخص الجمل والأبيات المفردة، بل إن منها ما يخص الأجناس والقوالب الفنية، أى وحدة العمل الأدبى كله، وهذا ما عنى (أرسطو) بشرحه حين تحدث عن المسرحية والملحمة، على أنه لم يغفل الإشارة إلى ما بين الألفاظ ومعانيها فى الجملة من صلة[1].

(١) النقد الأدبى الحديث صـ٢٤١ بتصرف. ط نهضة مصر د.ت.

ومن خلال استقرائى لشعر ابن زيدون رأيت معجمه طيّعا وخادما لأفكاره؛ لأنه يملك وسائله الفنية؛ ويستطيع أن يعبر عما فى نفسه بانسجام ووضوح، ولأنه يعرف هدفه، ويحدد الطرق التى تبلغه ما يريد، ونعيش مع هذه الأبيات التى يرثى فيها المعتضد فيقول:

أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى ∴ قلوبٌ مناها الصبر لو ساعد الصبرُ
دع الدهر يفجع بالذخائر أهله ∴ فما لنفيس، مذ طواك الردى قدْرُ
تهون الرزايا بعد وهى جليلة ∴ ويعرف مذ فارقتنا الحادث النكرُ
فقدناك فقدان السحابة لم يزل ∴ لها أثر يثنى به السهل والوعرُ
مساعيك حَلْىٌ لليالى مُرصَّعٌ ∴ وذكرك فى أردان أيامها عطرُ
فلا تبعدن، إن المنية غاية ∴ إليها التناهى ، طالَ أو قصُرَ العمرُ[1]

فيذكر فى البيت الأول (الذوب) أو (الذوبان)[2]، ويربطه بالقلوب المملوءة بالأسىٰ؛ لأنه يسكنها، وتتمنى الصبر، ولكنه لا يساعد على ذلك، وذكر التمنى وهو أبعد من الترجى؛ لأن الموت لا ينفع معه الرجاء، وأتى بكلمة (قلوب) بصيغة الجمع؛ لبيان الكثرة فى عدد هؤلاء الذين حَزِنُوا على المرثى.

وفى البيت الثانى يأتى لفظ (الفجائع) وله وقع شديد على القلب، ويذكر (الردىٰ) ولفظتى (النفيس) و(القدْر)، ويؤكد أنه لا يوجد شئ نفيس ذو قدْر بعد رحيل المرثى.

وفى البيت الثالث يذكر (الرزايا الجليلة) التى أصبحت هَيِّنة بعد هذه المصيبة الكبرىٰ، ويعضّدها بالفعل وفاعله ومفعوله: (فارقتنا).

وفى البيت الرابع يذكر الفعل (فَقَدَ) ومصدره (فقدانَ السحابة)، وإضافة المصدر للسحابة يدل على مكانة المرثى، حيث الجود والعطاء بدون مقابل، والنفع العام لكل سهل ووعر.

---

(١) ديوان الشاعر صـ١٨٤.
(٢) المصدران صحيحان.

وفى البيت الخامس يبين الأثر الذى تركه بعد رحيله، حيث المساعى الطَّيِّبة التى تتحلىٰ بها الليالى ، ويتعطر بها الزمن كلما ذكر المرثى.

وفى البيت الأخير يؤكد أن المنية نهاية قاطعة لكل حى، والخلق يقتربون من تلك النهاية كل يوم، ولعله متأثر فى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[1] وما أجمل هذا الاختصاص بتقديم الجار والمجرور فى قوله: (إليها التناهى!) وما أروع تلك المقابلة بين الطول والقصر فى قوله: (طال أو قصر العمر)!!

وأزعم أن معجمه الشعرى قد أسعفه فى رسم هذه اللوحة الفنية التى نلمح فيها صدق العاطفة، وقوتها، واستمراريتها ونرى فيها تمكنه من اللغة ووضع المفردات فى مكانها الصحيح، والجدير بالذكر أن البيت الأخير يجرى مجرى الحكمة المستقلة التى يصلح دورانها على كل لسان، وفى أى مكان وزمان:

فلا تبعدن إن المنية غاية ∴ إليها التناهى طال أو قصر العمر!!

إن ثقافته اللغوية المحكمة تمكّنه من حسن التخاطب، فعندما يرثى أحد الأمراء يذكر أثناء حديثه: السؤدد والجنود، والنصر، والعطاء، والغيث وعندما يرثى العالم القاضى (ابن ذكوان) يأتى بالمعجم الشعرى الذى يليق بمكانته حيث يقول:

مَنْ للعلوم؟فقد هوىٰ العلم الذى ∴ وسمت به أنواعها الأغفالُ[2]
مَنْ للقضاء يعز فى أثنائه ∴ إيضاح مظلمة لها إشكالُ؟
مَنْ لليتيم تتابعت أرزاؤه ∴ هلك الأبُ الحانى وضاع المالُ؟
أين الحفاوة، روضها غض الجنى ∴ أين الطلاقة، بِشرُها سلسالُ؟[3]

فالقضاء لا يكون إلا عن علم، وثقة، ومعرفة، واجتهاد فى حل المعضلات، والقاضى هو الذى يأتى لليتامى بحقوقهم عند خراب

(١) الآية ٤٢ سورة النجم.
(٢) الأغفال : المهملة .
(٣) ديوان الشاعر صـ١٨٨ .

الذمم بعد رحيل أحنى الناس عليهم، وهما الوالدان أو أحدهما؛ ولذلك يأتى بهذه الاستفهامات وينقاد له معجمه الشعرى:

[من للعلوم؟] ، [من للقضاء؟]، [من لليتيم؟]، وكان منطقيا فى ترتيبه فأتى بالعلم أولا فى صيغة الجمع (علوم)، فهو الأساس فى القضاء، ولابد من الإلمام بالعلوم المتنوعة حتى يكون القاضى محيطا بما يدور حوله، ومن ثَمَّ يأتى قضاؤه على هُدَىً وبصيرة، ولذا جاء بالاستفهام الثانى بعد (العلوم) ثم أتى بالاستفهام الثالث، وهو يخص فئة يطبق عليها أحكام القضاء، وهى فئة اليتامى، وكان منطقيا أيضا فى قوله:

(هلكَ الأبُ الحانى ، وضاعَ المالُ)

فهلاكُ الأب الحانى بالطبع والواقع، يكون سببا فى ضياع المال عند الكثيرين من رُوَّادِ المحاكم، فقد يأكل الكبير حق الصغير، وقد يأكل الذكر حق الأنثى ... فتحدث المعضلات التى يحلها القضاء، ومن هنا كانت كلماته ملائمة للمضمون العام فى القصيدة، وبالتالى فإن معجمه يعدُّ وسيلة من وسائل التصوير والإبداع، فضلا على أنه يتماشى مع الواقع الذى يعيشه الناس.

وجاء البيت الرابع تتويجا للأبيات الثلاثة السابقة، ففيه يستفهم عن الحفاوة الغضة، والطلاقة التى تتلألأ بالبشر:

أين الحفاوة، روضها غض الجنى ∴ أين الطلاقة، بِشرها سلسالُ؟

لأن القاضى (المرثى) إذا كان متقنا للعلوم والمعارف التى يبنى عليها أحكامه، وواقفا بجوار المظلومين والضعفاء فإن المجتمع سيحتفى به، ويتفاعل معه، ويحدث البِشر والطلاقة بينه وبين المترددين عليه، حيث تشع منه البهجة والأريحية، وهذه الصفات تفوح من قبره بعد رحيله، وهذا ما جعله يأتى بكلمة (العطر) ويضيفها (للثرى) فى قوله:

يا قبره العَطِرَ الثرىٰ لا يبعدن ∴ [1] حلو من الفتيان فيك حلالُ

وأرى أن معجمه الشعرى لم يسعفه فى الشطر الثانى من البيت، فكلمة (حلو) تتماشى مع المأكولات أكثر، وكلمة (الفتيان) لا تليق بالعالم الفقيه القاضى (ابن ذكوان) وكلمة (حلال) إيحاؤها ركيك فى هذا المقام ، فالحلال والحرام يتعلقان غالبا بالأحكام الشرعية، وأرى أن توضع كلمات أخرى مكان تلك الألفاظ؛ ليناسب آخر البيت أوله من ناحية، وليسير البيت مع أشقائه فى خدمة المعنى العام للقصيدة من ناحية أخرى، فيصير البيت على هذا النحو:

يا قبره العطر الثرى لا يبعدن ∴ روح[2] من الريحان[3] فيه ظلالُ

فالروح والريحان يتماشيان مع قبره المعطر الثرى، والظلال الربانية تظلل القبر بمن فيه، أو أن الروح والريحان يكونان طبقة من الطيب فيتعطر فضاء القبر كما تعطّر ثراه !!!

---

(١) الحلو الحلال من الفتيان: الذى لا ريبة فيه [ديوان الشاعر صـ١٨٧] .

(٢) الروح: نسيم الريح. ويوم روح: طيب الريح .

(٣) والريحان: تطلق على نبات طيب الرائحة، وتطلق على (الرحمة والرزق) [مختار الصحاح صـ١٣١] .

المبحث الثالث
الموسيقى الشعرية

عندما يذكر مصطلح (الموسيقى الشعرية) يتشوق المتلقى إلى النشوى العاطفية والمتعة العقلية، والأريحية القلبية، والثمرة الدنية التى يقطفها من بيت شعرى، أو سطرٍ نثرىٍّ متناسق الفواصل والنهايات .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الموسيقى لا تقتصر على الأوزان والقوافى، وإنما تشتمل على حُسن اختيار الكلمات وحروفها، وحسن التقسيم والمحسنات البديعية غير المتكلفة، وهو ما يعبر عنه بـ(الموسيقى الداخلية)، "وهى ترجع إلى طبيعة حروف الكلمة، ومخارجها فى النطق، من جهر وهمس، وشدة ولين، وشفة وحَلْق، مما يدرس قديما فى علم التجويد، وحديثا فى علم الأصوات"(١).

يقول شاعرنا فى رثاء المعتضد:

هوالدهرُفاصبر للذى أحدث الدهرُ ∴ فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبرُ
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة ∴ فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزرُ(٢)

فنلاحظ ظاهرة صوتية مؤثرة وهى ظاهرة "التكرار"، وهى من جماليات الموسيقى الداخلية فكلمة (الدهر) كررت مرتين، تأكيدا منه على أن الدهر وعاء للأحداث ولا فكاك بينه وبين ما يدور على ساحته من أقدار وخطوب. ويكرر كلمة (الصبر) التى جاءت فى البيت الأول مرتين، وجاءت فى البيت الثانى ثلاث مرات:

[ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة]

بالإضافة إلى حسن التقسيم، والمقابلة البلاغية فى:

أ - صبر اليأس، أو الصبر السلبى .

---

(١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث صـ٨٥ د/ محمد نايل . ط العاصمة بالقاهرة . د.ت .

(٢) ديوان الشاعر صـ١٧٥ .

ب - وصبر الحسبة، أو الصبر الإيجابى ٠

وفى البيت تقسيم آخر فى(الحسبة)بمعنى الأجر الجزيل من الله، و(الوِزر)بمعنى العقوبة على عدم الرضا والسخط تجاه قضاء الله وقدره٠

من هنا نرى أن الشاعر جَمَعَ فى البيتين السابقين بين حسن التقسيم والتكرار، وهو "من الوسائل اللغوية التى يمكن أن تؤدى فى القصيدة دورا تعبيريا واضحا؛ فتكرار لفظة ما[١]، أو عبارة مَّا، يوحى بشكل أولى بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى"[٢].

وأشير إلى ملمح آخر فى كلمة (الأبرار) التى سبق ذكرها فى البيتين، فهى كلمة منتقاة من الناحية الدلالية، والموسيقية، حيث تأتى من مادة (البر) ولها جمع آخر هو (البررة)، وهى تمثل قمة الإيمان؛ ولأن البار لن يصل إلى هذه الدرجة العالية إلا بالصبر ، وقد ربط الشاعر بينهما ببراعة فى قوله:

(فمن شيم الأبرار فى مثلها[٣] الصبرُ)

وسبقَ القرآنُ الكريمُ فى تأكيد هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٤].

ومن حسن التقسيم قوله:

إذا آسفَ الثكلُ[٥] اللبيبَ فشفَّه ∴ رأى أفدح الثكلين أن يهلك الأجرُ[٦]

---

(١) كلفظة "الصبر" ومشتقاتها ٠

(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة صـ٦٠ د/ على عشرى زايد ط.دار الفصحى للطباعة والنشر. القاهرة سنة ١٩٧٨م ٠

(٣) الضمير فى (مثلها) يعود على المصائب٠

(٤) الآيات ٥ ــ ١٢ سورة الإنسان ٠

(٥) الثكل هو فقد الحبيب ٠

(٦) ديوان الشاعر صـ١٧٥ ٠

فهناك ثكلان: ثكل المصيبة وثكل الجزع، وأكثرهما ألما هو الثانى، الذى يهلك بسببه الأجر، وكأنى به يقول: لا تجمع على نفسك مصيبتين: الأولى: مصيبة فقد الأب، والثانية: مصيبة الحرمان من الأجر.

وكلمة (الرزء) تعنى المصيبة، وهى لفظة فيها شئ من الثقل، ومع ذلك يكررها ثلاث مرات فى بيت واحد، يجرى مجرى الحكمة، وتكرارها هذا يعد نوعا من الموسيقى الداخلية، والبيت كله يعد منظومة للفعل الإيجابى الذى ينبغى صدوره من المرء عند أيَّةِ مصيبة. يقول الشاعر:

وما الرزء فى أن يُودَعَ الترب هالكٌ ∴ بل الرزءُ كلُّ الرزء أن يهلكَ الأجرُ[1]

وفى البيت حُسن تقسيم كذلك، فهناك هلاكان. الأول هلاك المصائب، والثانى: هلاك الأجر، وهو الهلاك الحقيقى الذى سيندم عليه فاعله.

ويقول الشاعر فى رثاء ابنة المعتضد:

سَرَّك الدهرُ وساء ∴ فاقنْ[2] شكرا وعزاء
كم أفاد الصبر أجرا ∴ واقتضى الشكر نماء[3]

فمن الموسيقى الجلية، وحسن التقسيم المقابلة بين المسرة والشكر، والإساءة والعزاء بمعنى الصبر، ومقارنته الصبر بالأجر، والشكر بالنماء أو المزيد وبهذا يكون قد جمع الإيمان ومحاسنه فى البيتين؛ لأن الإيمان نصفان: النصف الأول الشكر على النعماء. والنصف الثانى الصبر على الضراء، والشاعر بهذا التقسيم يُهَوِّن على المعزَّىٰ الذى فقد ابنته، ويفلسف الموت والحياة لينتفع به المتلقى فى المناسبات المشابهة.

---

(١) ديوان الشاعر صـ١٨٤.
(٢) اقن : الزم.
(٣) ديوان الشاعر صـ١٣٤.

ومن ظواهر الموسيقى الداخلية عنده ظاهرة (التصريع) [١] ، وقد جاءت قصائده الرثائية الست مُصَرَّعة، وهذه الظاهرة تعطى نوعا من الموسيقى التى لا يخفى أثرها على المستمع، كما تساعد على حفظ الأبيات والقصائد المطولة.

أما الأوزان الخاصة بقصائده الرثائية فهى أوزان خليلية و"هى الأنسب فى غرض قديم كالرثاء"[٢].

وقد استخدم موسيقى (البحر الطويل) فى أربع من قصائده الست، واستخدم فى الخامسة (الرمل المجزوء)، وفى السادسة موسيقى (البحر الكامل)، وإجمالى الأبيات التى جاءت فى فن (الرثاء) هو أربع وستون وثلاثمائة بيت، طبعت فى اثنتين وسبعين صفحة من ديوانه المكون من ثمان وثمانين ومائتى صفحة، فرثاؤه يشغل ربع ديوانه تقريبا.

ونلاحظ أن أكثر من ثلثى شعره فى الرثاء، جاء على موسيقى (الطويل) فهو – فى تقديرى – عمدة الأوزان الموسيقية ورائدها؛ بسبب اتساعه للكثير من الموضوعات حيث "لا يستعمل إلا تاما، فلا يدخله جزء، ولا شطر، ولا نهك"[٣].

وأرى أن طبيعة المرثيين تفرض عليه أن يستخدم موسيقى (الطويل) دون غيره؛ لأنه أسهب فى ذكر أمجادهم، وصفاتهم التى بقى أثرها بعد رحيلهم فاستفاد بها الأحياء؛ ولذا فلقَّبه بأنه (شاعر

---

(١) البيت المصرع هو: ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزيادة أو نقصان. وإنما قطعوا ذلك فى مقتتح القصائد ليحسن التناسق.[أهدى سبيل إلى علمى الخليل صـ١٠٨ محمود مصطفى . ط صبيح بالقاهرة سنة ١٩٨١م] .

(٢) أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة صـ١٤٤ د/ السيد محمد الديب ط الاولى. المتحدون بالزقازيق سنة ٢٠٠٤م.

(٣) المتهل الصافى، فى علمى العروض والقوافى صـ٤٨ د/فؤاد الحطاب. ط صيرفا بالزقازيق سنة ١٩٨٣م.

العظماء)، فقد رثا الأمير المعتضد بالله، ووالدته، وابنته، والعظيم الخامس هو القاضى (ابن ذكوان) وجاءت مرثيته على موسيقى البحر (الكامل) [متفاعلن] ، وأرى أنها تناسب المضمون؛ لأن تفعيلته تحتوى على خمس حركات وساكنين، وكان الوزن تاما (ست تفعيلات فى البيت)، وهذا يوحى بكثرة أنشطة المرثى فى مجالات متعددة كالفقه، والتبحُّر فى العلم، والفصل بين الناس فى الخصومات وهذه الأعمال كلها،الحركاتُ فيها أكثر من السكنات، وكان (الكامل) تاما؛ ليسعف الشاعر فى نقل مناقب المرثى صغارها وكبارها .

وللتدليل على ما سبق من أنشطة (ابن ذكوان) وأمجاده، ومناسبة الموسيقى لمرثيته، ننظر إلى مطلع هذه القصيدة حيث يقول:

اعجب لحال السرو كيف تحالُ ∴ ولدَولَةِ العلياء كيف تُدالُ؟[1]

فهو يدعو إلى العجب، وأعجب من ذلك قوله: [دولة العلياء]، حيث يتلهف المستمع إلى أن يستظل ويكون فردا فى دولة العلياء، التى تشبه المدينة الفاضلة التى نادى بها أفلاطون من قبل، وقد قال بعض الحكماء: من أراد أن يكون غنيا من غير مال، ومهابا من غير مُلك ولا سلطان، فعليه بالعلم والتقوى، وهما أساس المعالى فى الدنيا والآخرة.

وكما كان نظمه الموسيقى ــ عند رثائه لذلك القاضى ــ مختلفا، كانت قافيته مختلفة أيضا؛ فقد جعل حرف اللام رويًّا لقصيدته فى (ابن ذكوان)، وهذا يرجع ــ فى تقديرى ــ إلى أمرين:

الأمر الأول: أن اللام من الأحرف المجهورة "والصوت المجهور هو الذى يهتز معه الوتران الصوتيان، وذلك حين تنقبض فتحة المزمار ويقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة

(١) السرو: الشرف والسيادة. تحال: تتحول . تدال: تتبدل [ديوان الشاعر صـ١٨٦] .

المزمار، ولكنها تظل تسمح بمرور النفَس خلالها، فإذا اندفع الهواء خلال الوترين وهما فى هذا الوضع يهتزان اهتزازا منتظما، ويحدثان صوتا موسيقيا تختلف درجته حسب عدد هذه الهزات أو الذبذبات فى الثانية، كما تختلف شدته أو عُلُوُّه حسب سعة هذه الاهتزازات الواحدة"(١).

الأمر الثانى: أن حرف اللام يخرج من طرف اللسان مع الثنايا العليا، وهذا يوحى بالتعاون الداخلى عن طريق الوترين الصوتيين والخارِجَيْن عن طريق اللسان والأسنان، فيؤازر الباطن الظاهر، وهذا مما يجعل المرثى مُوفَّقاً فى علمه وقضائه هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الفكَّ الأسفلَ من حنك الإنسان بمثابة الأرض التى نحيا عليها، والحنك الأعلى بمثابة السماء، واللسان الذى يتحرك ينتمى إلى الأرض، ولكنه يتجه إلى أعلى ليأخذ التشريع النورانى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٢)، فيصير ربانيا، ويقول قولا سديدا ويقضى بين الناس بما يُرضى الله ورسوله، لهذا السبب جُعلتْ اللامُ رويًّا لمرثية (ابن ذكوان)، وهذه وجهة، والأدب حمَّالُ أوجه، وهذا هو سر خصوبته.

وقد جعل حرف (الهمزة) رويا لقصيدته فى رثاء ابنة المعتضد؛ لأنَّهُ حرف يدل على الحزن الدفين، حيث يخرج من أقصى الحلق، ومهما قال القائلون، أو حزن الحاضرون والغائبون فلن يبلغوا الحزن الكائن فى قلب الوالِدَيْن على ابنتهما؛ ولذا أتى بالهمزة فى الروى؛ حيث يجعل نفسه مكان والدها الأمير، فيحزن لحزنه.

---

(١) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور صـ٢٨، ٢٩ د/صابر عبدالدايم، ط الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) سورة النساء / ١٧٤ .

أما قافية الراء، فقد جعلها لمعظم قصائده ؛ لأن ذلك الحرف من حروف الجهر[1] التى مر بيان مفهومها، بالإضافة إلى صفة مهمة يتميز بها حرف (الراء)، وهى صفة التكرار فى ذات الحرف، وتعدُّ هذه الصفة لونا من ألوان الموسيقى ، فهو حرف يأسر المتلقى ويجذبه من ناحية، ويعبر عن واقع تلك الأُسْرة[2] المصابة، وتكرار المصائب والصبر عليها من ناحية أخرى ، هذا . ومن أهم ما يميز موسيقى القافية عنده أن الكلمات التى تُقَفَّىٰ بها الأبيات ملائمة تماما لمضمون البيت والقصيدة معا .

وللقافية رنين فى الأذن لا يستهان به، ويدب هذا الرنين إلى داخل النفس فيجعلها تطرب لما تسمع، وتتأثر بل وقد تتغير إلى الأحسن، وقد تحجم عن رذيلة، وتُقْدِمُ بنشاط على حكمةٍ أو فضيلةٍ، فالقافيةُ تساعد المتلقى على ذلك؛ لأنها تجعل العقل الباطن يردد البيت حتى ولو لم يُرِدْ صاحبُه ترديدَه .

يقول د/ محمد غنيمى هلال: "وللقافية قيمةٌ موسيقية فى مقطع البيت، وتكرارها يزيد فى وحدة النغم، ولدراستها فى دلالتها أهمية عظيمة، فكلماتها ــ فى الشعر الجيد ــ ذات معان متصلة بموضوع القصيدة، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية، بل تكون هى المجلوبة من أجله. ولا ينبغى أن يُؤتَىٰ بها لتنمية البيت، بل يكون معنى البيت مبنيا عليها، ولا يمكن الاستغناء عنها فيه، وتكون كذلك نهاية طبيعية للبيت، بحيث لا يسد غيرها مسدها فى كلمات البيت قبلها .." [3].

---

(١) حروف الجهر كما تبرهن عليها التجارب الحديثة ثلاثة عشر حرفا هى [ب ــ ج ــ د ــ ذ ــ ر ــ ز ــ ض ــ ظ ــ ع ــ غ ــ ل ــ م ــ ن].(موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور صـ٢٩) .

(٢) أعنى: المعتضد، وأمه، وابنه المعتمد، وابنته .

(٣) النقد الأدبى الحديث صـ٤٤٢ ــ ٣٤٣ .

والمتأمل لشعر ابن زيدون فى الرثاء وغيره، يجده موسيقيا فى حروفه، وكلماته، ونظمه، وقافيته، ويمكن أن أقول: إن شعره من الألفة بمكان مع بلاغته وفصاحته، وهذا ما يجعل المتلقى متشوقا إليه، ومسرورًا بإنفاق وقته فى الجلوس بين يديه.

الخاتمة

يمكن ــ بعد حمد الله تعالى وشكره ــ أن نخرج من هذا البحث بالنتائج التالية:

١ - التأكيد على أن المصائب التى تصيب الناس لا تختص بفئة دون أخرى، وأكبر هذه المصائب، مصيبة الموت؛ ولذا يجب أن يتسلح فى مواجهتها بسلاح الصبر الإيجابى الذى يفوز معه بالأجر والمثوبة:

ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة ∴ فلا تؤثر الوجهَ الذى معه الوزرُ

وهذا الصبر الإيجابى هو الذى يعيدُ بناءَ النفس من الداخل إذا فقدتْ شيئا من لبنات تماسكها.

٢ - المعتدُّ به فى الأعمال هو الأثر الذى يتركه الإنسان بعد رحيله، وليست العبرة بالكم الزمنى الذى يعيشه، (فعيسى) ــ عليه السلام ــ عاش ثلاثا وثلاثين سنة فقط ومع ذلك، فهو نبىٌّ صاحب كتاب سماوى، ومن أولى العزم من الرسل، وأكد شاعرنا هذا المعنى فى رثائه (لابن ذكوان) الذى ترك مكرماتٍ طويلةَ الأجل:

وُدعت عن عُمُرٍ عمرتَ قصيرَهُ ∴ بمكارم أعمارهُنَّ طوالُ !!

٣ - الرثاء الشعرى فيه نفع كثير للأموات والأحياء، فالأموات يحظون بالتذكر المقرون بالدعاء والاستغفار ...، والأحياء ينتفعون بهذه الصفات التى يرددها الشاعر تجاه المرثيين، كصفات: العفة، والتقوى، ومكارم الأخلاق، والإخبات، والتسبيح، والإنفاق، ورعاية الأيتام والأرامل، وتحرى العدل فى فض الخصومات، والمسارعة إلى فعل الخيرات:

شيمٌ يُنافس حسنَها إحسانُها ∴ كالراح نافسَ طَعْمَها الجريالُ

٤ - يحتوى شعره على شئ من الطرافة والابتكار، ففى بعض المواطن يجمع بين التهنئة والرثاء بلا نفور كقوله فى رثاء المعتضد:

لئن كان بطن الأرض هُيِّئ أُنْسُهُ ∴ بأنك ثاويه، لقد أوحش الظهرُ

وقوله فى رثاء والدة المعتضد:

هنيئا لبطن الأرض انسٌ مجدَّدٌ ∴ بثاويةٍ حلَّته، فاستوحش الظهرُ

علما بأن البيت الثانى أبلغ وأكثر طرافة من الأول بسبب كلمة: (هنيئا) فى مطلع البيت، وبسبب وصف (الأنس) بأنه: (مجدد) ويرجع تجديده إلى كثرة الثناء عليها من الأحياء، وقد جاء فى الآثار الصحيحة أن الأرض تحن للصالحات والصالحين الذين كانوا يكثرون من الأعمال الطيبة على ظهرها؛ لأنها ستتحدث يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ولما قرأ النبى الكريم هذه الآية قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد عى كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها"[1].

٥ - جاءت بعض الحِكَم مبثوثة فى شعره الرثائى؛ لأنها تلائم هذا المقام؛ ولأنها تحمل بعض المعانى المستقلة بالفهم والتى يسهل دورانها على الألسنة، علما بأن معانيها صحيحة ومقنعة، وتريح صدور المحزونين كقوله:

فلا تبعدن. إن المنية غايةٌ ∴ إليها التناهى، طالَ أو قصرَ العمرُ
وما الرزء فى أن يُودَع الترب هالكٌ ∴ بل الرزء كل الرزء أن يهلك الأجرُ

وقوله:

لا تفسحن للنفس فى شأو المنى ∴ إن اغترارك بالمنى لضلالُ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١١/ ١٤٨ ط. مكتبة الغزالى . دمشق د.ت .

وقوله:

إذا الموت أضحى قصر[1] كلِّ معمرٍ ∴ فإن سواء طال أو قصر العمرُ

وقوله:

مصاب الذى يأسى بميت ثوابه ∴ هو البرح[2] لا الميت الذى أحرزَ القبرُ

٦ - يتمَحْور اهتمام الشاعر حول الصفات النفسية لمن يرثيهم، فالإنسان إنسان بنفسه، وروحه، وعمله، ولَمَّا فُقِد أيٌّ من المرثيين، فُقدتْ معه الصفاتُ النبيلة، وبالتالى شعر الأحياء بالفراغ ومن ثَمَّ يقوم الشاعر بتعداد تلك المناقب، فيتفقَّدُ الأحياء ما فيهم من نقص أو خلل فيسددوه؛ ليحظوا بالثناء الحَسَن بعد رحيلهم كما فُعِلَ بأسلافهم، غير أن الأمانى قد تقف عقبة فى تحقيق ذلك:

لنا فى سوانا عبرة غير أننا ∴ نغر بأطماع الأمانى فنغترُّ

٧ - الصورة الشعرية عنده تعتمد على الحركة أكثر من اللون، والصوت. والحركة هى الحياة، كما يتكئ على التجسيم والتشخيص فى كثير من صوره.

٨ - لقد نظم أكثر من ثلثى شعره الرثائى على موسيقى (البحر الطويل) وهو ــ كما أكد النقاد ــ يتسع لسرد الموضوعات الكثيرة ، ولا يستخدم إلا تاما، وقد وافق هذا (البحر) فن الرثاء، حيث عَدَّدَ مناقبهم، ونبَّه على الكثير من آثارهم التى أفادت المجتمع بعد رحيلهم، كما كانت قوافيه عذبة متآلفة مع مضامين الأبيات والقصائد، ويرجع ذلك إلى إتقانه لوسائل التعبير عنده، وامتلاكه لناصية اللغة.

---

(١) قصر : غاية .

(٢) البرح : العذاب الشديد .

٩ - ألمح من قراءة شعره أنه متأثر بشعراء المشرق، فى ألفاظه الفصيحة، وتراكيبه البليغة، وارتكازه على علوم البلاغة فى تكوين صوره، بالإضافة إلى وحدة الوزن العروضى والقافية.

١٠ - استطاع (ابن زيدون) أن يمزج بين الأساليب الخبرية والإنشائية فى شعره الرثائى ، فيأتى بالخبرية فى الحقائق الثابتة المسَلَّم بها كقوله:

[فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبرُ]

وقوله:

[لقد أُجهش الإخلاص بالأمس باكيا]

ويأتى بالأساليب الإنشائية ليشعر المخاطب أنه حريص عليه، فيطلب منه أن ينشئ المعنى إنشاءً كقوله:

[فاصبر للذى أحدثَ الدهرُ]

وقوله:

[فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزرُ]

١١ - وأخيرا أرى أن (ابن زيدون) ممن يَألفون ويُؤلَفُون؛ لأن المتلقى يشعر بالأُنس والنشوة عند قراءة شعره، وكأنه يطلُّ عليه من بين الكلمات والأسطر، ومن هنا فشخصيتُه واضحة؛ وهذا يرجع إلى طبيعته الإنسانية وشاعريته القوية، وملكته البيانية، واختلاطه بالأمراء والعلماء، وتعرضه للمِحَن والشدائد ... وهذا كله قد جعله خبيرا بمَنْ يخاطبهم بشعره ونثره.

وبعد. فهذا ما وفقنى الله إليه فى هذه الدراسة، فإذا وُجد فيها ما يفيد فهو من الوهّاب سبحانه وتعالى، وإذا وجد تقصير فحسبى

أنه غير متعمد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

والله أعلى وأعلم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الأذكار للإمام النووى. تحقيق أحمد عبدالله باجور . ط الأولى . الريان. بالقاهرة سنة ١٩٨٨م.
- اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د/ محمد نايل ط العاصمة القاهرة . د.ت.
- الجامع لأحكام القرآن الكريم. للإمام القرطبى . ط مكتبة الغزالى بدمشق . د.ت.
- أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة د/ السيد محمد الديب ط.الأولى ، المتحدون بالزقازيق سنة ٢٠٠٤م.
- أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى. ط صبيح سنة ١٩٧٩م.
- أسس النقد الأدبى عند العرب د/ أحمد بدوى. ط نهضة مصر سنة ١٩٧٩م.
- الشوقيات/ أحمد شوقى. تعليق د/ يحيى الشامى. ط الأولى بيروت سنة ١٩٩٦م.
- الصحة والعلاج فى الطبيعة والأعشاب د/ سامى محمود ط.المركز العربى للنشر والتوزيع بالإسكندرية، د.ت.
- الصورة الأدبية تأريخ ونقد د/ على على صبح ط الحلبى بالقاهرة. د.ت.
- القاموس القويم للقرآن الكريم. إبراهيم أحمد عبدالفتاح ط.المطابع الأميرية سنة ١٩٨٣م.
- المنهل الصافى فى علمى العروض والقوافى د/ فؤاد الحطاب وآخرون. ط. ميرفا بالزقازيق سنة ١٩٨٣م.
- النقد الأدبى الحديث د/محمد غنيمى هلال ط.نهضة مصر.د.ت.

- أهدى سبيل إلى علمى الخليل . محمد مصطفى ط. صبيح الحادية والعشرون سنة ١٩٨١م.
- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم. تحقيق مسعد فريد الأشمونى ط. دار الغد الجديد بالمنصورة سنة ٢٠٠٥م.
- جدد حياتك للشيخ محمد الغزالى.ط الرابعة.الريان سنة١٩٨٧م.
- ديوان ابن زيدون . تحقيق/ كرم البستانى . ط دار بيروت سنة ١٩٧٩م.
- رياض الصالحين للإمام النووى ط. الحادية عشرة . دار عالم الكتب للنشر والتوزيع بالرياض سنة ١٩٨٩م.
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشرى زايد . ط.دار الفصحى للنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٨م.
- عصر الدول والإمارات (الأندلس) د/ شوقى ضيف. ط. دار المعارف الثانية بالقاهرة سنة ١٩٩٤م.
- فنون الأدب العربى (فن الرثاء) د/ شوقى ضيف ط. دار المعارف سنة ١٩٨٧م.
- لسان العرب لابن منظور. ط دار المعارف . د.ت.
- مختار الصحاح للإمام الرازى ط. الثانية. المطبعة العصرية. بيروت سنة ١٩٩٦م.
- معجم الاستشهادات د/ على القاسمى. ط الأولى. مكتبة لبنان سنة ٢٠٠١م.
- موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور د/ صابر عبدالدايم ط. الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٩٣م.
- نوابغ الفكر العربى (ابن زيدون) د/ شوقى ضيف . ط دار المعارف. الثانية عشرة سنة ١٩٩٠م.